"إشكالية التّقليد في الصناعات التّقليدية"

قراءة نقديّة في نص "الحبيب بيدة" الصّادر في ملتقى "الإبداع الوظيفي بتونس في القرن العشرين" المنظّم ببيت الحكمة بقرطاج في أفريل 2006

د. إيمان طهاري اللّجمي

المعهد العالي للفنون الجميلة- تونس

imentahari1@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/09/26	تاريخ القبول:2019/10/31	تاريخ النشر:2019/12/06

ملخص

تتعلّق هذه الدّراسة بقضيّة الصّناعات التقليديّة، التي حاولنا سبر أغوارها بالعودة إلى نص الناقد والفنان التشكيلي التونسي "الحبيب بيدة". دراسة هي بمثابة نقد للنقد، تضع مقال الباحث على محكّ المعاينة والمناقشة النظريّة، من أجل معرفة طبيعة الصناعات التقليديّة ومميّزاتها والوضعيّة التي تقف عندها. وقد توصّلنا من خلال هذا البحث النظريّ الذي كان مرجعنا الأوّلي في البحث عن هذه المسألة وفي الحكم عليها، إلى حقائق هامّة عكست صورة الصناعات التقليديّة في واقعها المحليّ التونسي والتي أقرّت واقع الأزمة التي أصبحت صفة لصيقة بها نتيجة عديد السلوكات والنقائص والغيابات في عديد المستويات.

تقديم

تنطلق دراستنا لمسألة الحرف والصّنائع الفنية، من خلال التطرّق إلى نموذج من النّصوص الموثّقة بإحدى الملتقيات العلميّة التي تناولت هذه القضية، وبناء على ما أفرزته أشغال ملتقى "الإبداع الوظيفي بتونس في القرن العشرين" المنظّم ببيت الحكمة بقرطاج في أفريل 2006. ونخصّ بالدراسة، نص "إشكاليّة التّقليد في الصّناعات التّقليديّة" للأستاذ والباحث التونسي "الحبيب بيدة"، عبر قراءة نقديّة تحليليّة في القضايا العامّة المكوّنة لهذه المادّة المعرفيّة والمتّصلة بجوهر الصناعات "التّقليديّة"،

تطرح القضايا المقترحة من قبل الباحث وتوجّهاته الفكرية والإيديولوجيّة وتتأمّلها بأسلوب نقدي يضعها على محكّ المساءلة والبحث الفكري.

هو نوع من تقصّي واقع الصناعات "التقليدية" كهدف أساسي شامل، نقف فيه عند موقف فكري بتفاصيله وخصوصيّاته المحدّدة، يكون مادّة اشتغالنا من أجل الحكم على على هذه الصّناعات. من ثمة، يكون هذا المقال بمثابة نموذج مصغّر يمكن أن تعكس مضامينه عبر قضاياه المقترحة من طرف الأستاذ الباحث "الحبيب بيدة"، صورة عن المشهد العام للصناعات "التقليدية" العربيّة والمحلية التّونسيّة على وجه الخصوص.

1- قراءة في قضايا النصّ: مشكليّات الصّنائع في تونس

إن الدارس لمتن النص المقترح منذ بدايته، يلمس واقعا معقّدا وحرجا للصّناعات التقليدية العربية عامّة وفي تونس خاصّة، قد عبّر عنه بصفة مباشرة عنوان البحث، على غرار جملة من الألفاظ والنّعوت والمفردات التي كشفت هذه الخاصيّات وعديد الصيغ والتمثّلات اللّفظيّة والاستفهامات الإنكارية التي تواتر حضورها في السّياق التّعبيري. هو سياق تهكّمي وهجومي على هذه الصناعات، يجد فيها الباحث معوّقات ومكامن ضعف أقرّتها جملة من الوقائع التي شملت الشكل والمضمون، وكما صرّح "الحبيب بيدة": "**إنّ انطلاق الحديث عن الصّناعات التقليديّة في تونس خاصّة وفي البلاد العربيّة عامّة يطرح عدّة إشكاليّات أساسيّة**".[1] إشكاليّات متعدّدة نقف عندها وقفة تأمّلية، حتّى تتجلّى لنا صورة عن واقع هذه الصّناعات وخصوصيّاتها وكيفيّة بحث الباحثين في هذه المسألة الجوهريّة من قضايا الفن والمجتمع، من خلال نموذج نص الباحث التّشكيلي "الحبيب بيدة" الذي وقفنا عنده بالدّراسة.

1-1- في النّعت الاصطلاحي

رأى "الحبيب بيدة" في التّسمية "الصناعات التّقليدية" وفي نعت "التقليد" الذي التصق بهذه الصّناعات، وضعا حرجا ومعقّدا بشّر منذ البداية بواقع مكبّل لهذه الصّناعات في بؤرة لفظ قد حمل في طيّاته عديد الاستفسارات، وكان مدعاة لعديد التّساؤلات والاستفهامات. إنّه لمأزق اصطلاحي، تلخّص في نعت قد حصر هذه الصّناعات في بوتقة التّراث والموروث، هذا الحقل المعرفي الشاسع الذي يشكو في حدّ ذاته من عديد الإشكالات الفكريّة والاصطلاحيّة على حد سواء. ولعلّها وضعيّة قد أشارت إليها المعاجم

اللفظيّة والصّيغ الاستنكارية المتكرّرة في سياق النص، وفي ذلك يورد "الحبيب بيدة" متسائلا: "**هل ثمّة علاقة بين الصّناعات التي نسميها اليوم تقليديّة نسبة إلى التّراث أو الموروث وهذا التّراث؟ وأي تراث نعني عندما نتحدّث عن الصّناعات التّقليديّة؟**.[2]

هي تسمية غدت صفة ملتصقة بهذا الصنف من الصّناعات، افتقرت إلى حجج وبراهين أو تفسيرات من شأنها أن تثبت وجودها الفعلي أو تضفي عليها صفة الشّرعية والرسميّة القادرة أن تمنحها استقلاليّة تخوّل لها استمراريّة فعليّة. وعليه، يتضّح جليّا افتقار الصّناعات التي نعتت بالتقليديّة إلى كيان فعلي ثابت وفاعل، أمام فعل الإسقاط الاصطلاحي واللّفظي الذي وضعه البعض وخلوّه من الدّعائم الفكرية والمعرفيّة التي من شأنها أن تشرّع لحضوره. فيبدو وكأنّ الباحث والمبدع العربي قد سلّم بهذه المعطيات الجاهزة التي وجدها أمامه واستساغ هذه المصطلحات المتوفّرة في محيطه، حتّى لا يتحمّل مشقّة البحث الجدّي عن بديل رسميّ والدّراسة الرّصينة التي تستوجب علما وفعلا ميدانيا. فلا نستغرب غياب مدوّنة اصطلاحية عربيّة حديثة ثابتة وتامّة، أمام هذا التّسليم الكلي بما هو موجود، والذي أقرّ أوضاعا هامشية بعيدة كل البعد عن العقلانية، لتعلن في أحقابها عن تعثّرات الصّناعات التي أطلق عليها تقليديّة منذ الوهلة الأولى وانطلاقا من المعنى الاصطلاحي الذي التصق بها.

من ثمّة، أكّد المصطلح عقما فكريا أعلنه المعنى اللغوي الذي ارتبط وكما أقرّه "الحبيب بيدة"، بالزيف والتزييف. إنّه لتحنيط وجمود فكري أكّد فشلا لغويا نمّ عن سذاجة في الاختيار، يكون فيها اللّفظ الدّال عائقا منذ بداية الفعل. وهي وضعيّة حرجة يؤكّدها الدال من ناحية والمدلول اللفظي من ناحية أخرى، الذي حصر المعنى في بوتقة التراث دون تقديم مبرّرات علمية مقنعة دعت إلى القول بذلك. هي بالتالي تململات في إنشاء المفاهيم والمصطلحات، تعكس عبثيّة تعامل الباحثين العرب مع واقعهم المادي والفكري الذي كانت فيه حلول البحث إمّا عبر استيراد مصطلحات الآخر الغريبة عن مناهجنا وواقعنا النّظري والفكري، أو عبر القبول بالسّائد والمألوف وبما وضعه العامّة من أحكام وتعابير لفظية سقيمة وغير قويمة، حتى لا تمسّه مشقّة البحث والخلق والإبداع النظري المساهم في الإصلاح والتغيير.

وبذلك تتواصل معاناة المعرفة العربيّة، في ظل غياب الركائز المفهوميّة للمصطلح ليكون نعت "التّقليد" أو بالأحرى "التقليدي" على الصناعات، لغزا محيّرا ومدعاة للتساؤل

إلى يومنا هذا. ولعلّ في خلوّ متن نص "الحبيب بيدة" من الإجابات الدّقيقة وتعدّد التساؤلات والاستفسارات وسيطرة الفرضيّات على خطابه اللّغوي على امتداد المقال، ما يؤكّد وضعا حرجا كانت فيه الصناعات "التقليدية" مجالا غامضا وغير محدّد ومعرّف، مجالا يسبح في اللاّمعرفة إلى حدّ الآن.

1-2- فقر معرفي

لاحظنا جيّدا الجهل المحدق بالصناعات "التقليدية" التي تشكو وضعا إشكاليا انطلق من المصطلح في حدّ ذاته، حيث غابت فيه دقّة المعنى والدّلالة كما تبيّنا ذلك. ويحمّل "الحبيب بيدة" هذه الوضعيّة المحيّرة للصناعات "التقليدية"، المفكّرين والباحثين والمعنيين بالبحث العلمي في هذه المسائل الدّقيقة التي تستوجب دراسة ومتابعة جديّة وجادّة، وفي ذلك يذكر: "**يبدو الحديث عن الصّناعات الوظيفيّة في تونس في القرن العشرين حديثا لا يهم الكثير من المفكّرين، إذ لا نجد في مكتباتنا وعبر بحوث فلاسفتنا اهتماما بميدان هذه الصناعات في حين أنّنا نتعامل معها جميعا في حياتنا اليومية**".[3] وهو ما يعكس غياب البحث والتخصّص في معالجة قضيّة الصناعات "التقليدية"، في واقع لم يتحمّل فيه هؤلاء مسؤوليّة ولم يولوها أهميّة ومتابعة بالدراسة والنظر والتحليل الذهني والمنطقي الذي يساءل كنهها وهويّتها وأصولها ومبادئها وكل مسألة متعلّقة بها، من شأنها أن تقدّم صورة علمية واضحة عنها، صورة قائمة على منطق الفكر والتعقّل والشك في كل ما يحيط بهذه الصناعات، خاصة أمام المكانة الأوّليّة التي تحتلّها في الحياة اليوميّة.

حقيقة، تبيّن موقف الدّهشة والاستغراب في متن نص المقال، وهو ما يعكس حيرة "الحبيب بيدة" من الرّكود الفكري في التعامل مع هذه القضية الجوهرية، خاصّة أمام ملازمة هذه الصناعات للأفراد في المكان والزّمان. كيف لا، وهي جملة الوسائل والوسائط المعيشيّة التي نتعامل معها يوميّا ولا يمكننا الاستغناء عنها. ألا يمكن أن تكون هذه النّقاط دافعا للغوص في خباياها والكشف عن أسرارها وحقائقها التي لا يمكن أن تحصر في "التقليد" لفظا ومعنى؟ لكن، يبدو وكأنّ "**حضورها الدّائم والمستديم هذا سببا من أسباب عدم الالتفات إليها التفاتا فكريا وعقليا**"،[4] كما ذكر "الحبيب بيدة" أو أنّ الباحث العربي استساغ المعارف الجاهزة وقبلها كما هي حتّى يتجاوز عناء مساءلتها والخوض فيها ومشقّة البحث الجادّ. لذلك، أصبح الكسل المعرفي صفة لصيقة بالباحث

العربي والمحلي المختص على وجه الخصوص، الذي سلّم بالسآئد والمألوف الذّي وضعه العامّة، إن لم يجد دليلا غربيا يتكئ عليه. وهو لتنصّل من المسؤوليّة وسبب من الأسباب العميقة التي حادت دون وجود تعريف واضح ودقيق حول هذه الصّناعات، أو وجود دليل معرفي من شأنه أن يكون مرجعا فكريا نستند عليه عند فتح ملفّها الماهوي، فتبقى المعارف المتداولة حولها مجرّد مواقف ذاتية متناثرة هنا وهناك. ورغم قناعتنا بزيفها وخلوّها من الأسس العلميّة، فلا مفرّ منها ولا سبيل لنا إلاّ التّعامل معها في ظلّ غياب منهج علمي ثابت حولها، يلعب فيه الباحثين والفلاسفة والنقّاد دورا هامّا من دون شك.

في طرح "الحبيب بيدة" لهذه القضيّة الجوهريّة التي عزف فيها الباحثون المختصّون عن الدّراسة الجادّة، لعرض لأزمة حادّة محدقة بالدّراسات العلميّة ككلّ. فلا يمكن أن تكون الصناعات "التقليديّة"، سوى نموذج من عديد المواضيع والدّراسات التي تشكو فراغا توثيقيا وبحثيا، قد عمّق وضعيّة "اللاّمعنى" التي لازالت تسودها. ولعلّ في منطق التّساؤل المتواصل وسلبيّة النتائج التي استخلصها "الحبيب بيدة" في دراسته لوضعيّتها ومشهد واقعها المحلي، ما يؤكّد هذه الصفة.

1-3- قطيعة مع الفن

شهدت الصّناعات "التقليديّة" وضع إقصاء وعدم اعتراف بها في دائرة الفنون. هو فصل بين "الفن والصّناعة" كما عبّر عنه "الحبيب بيدة"، كانت فيه هذه الصناعات المسمّاة "تقليديّة"، مجرّد وسائط وأدوات تزويقيّة وظيفيّة إنتاجيّة استهلاكيّة واستعماليّة، بعلّة تنافي خصائصها الفيزيولوجيّة وسياقاتها التكراريّة والنّمطيّة التعدّديّة مع أحكام العمل الفنيّ، الذّي يقتضي فرادة في فكرة المنتج الفني وفي ممارسته. ومن ثمّة، رسخت في العقليّات والأذهان النّظرة "الدّونيّة" للصناعات التقليديّة، أمام عزلها التعسّفي عن "هالة" الفنون، ما عمّق صفة "اللاّمعنى" عليها. وفي إطار ذلك، خيّم نوع من الغموض والاضطرابات الفكريّة على الصناعات "التقليديّة"، خاصّة في ظلّ المفارقات التي أحاطت بها. ومن بين هذه المفارقات التي جعلت "الحبيب بيدة" ما ينفك يطرح جملة من التساؤلات الاستنكاريّة، نسبة هذه الصّناعات إلى التراث. عودة إلى التّراث ظاهرا لا باطنا وشكلا لا فكرا، من خلال تجاوز نظرة القدامى لهذه الصّناعات التي اعتبرتها "فنون الحياة" كما أفاد بذلك " الحبيب بيدة". فكيف نسبت هذه الصناعات "التقليديّة" إلى التّراث، في حين أنّها لم تقف عند مبادئ وأحكام هذا التراث الذّي جعلها

في دائرة الفنون؟ وهنا تتأكّد نوعا ما صفة الإسقاط العشوائي اللاّعلمي الذي تمّ على هذه الصّناعات، وقد تحدّثنا سابقا عن غياب المناهج المنطقيّة والدّراسات المعمّقة والشّروحات الفكريّة النّظريّة البنّاءة في التعامل مع هذه القضيّة.

إنّها لمسائل معقّدة، وقع فيها تجريد هذه الصّناعات من هويّتها الفعليّة التي كانت تتميّز بها في واقعها الطّبيعي التاريخي، لتوضع في واقع حديث لم يأخذ من عالمها المقدّس ومن صيغها الروحانيّة والوجوديّة، سوى الجانب المدنّس وكل ما يتعلق بالمهني والمادّي، الذّي ساهم في عزلها عن ميدان الفنون. ولا يمكن تجاوز هذه الخاصيّة التي تمّت فيها التّفرقة بين الفن والصّناعة، في سياقات تمتدّ ملامحها في الحياة اليوميّة، بين فنان يمتلك المعرفة فكرا وممارسة وبين حرفي صنائعي حاذق لحرفة معيّنة يمارسها بأسلوب روتيني لا فكر ولا إبداع فيها. وربّما قد ساهم سوء التعامل مع الماضي ومع هذا التّراث، في زرع هذه المفاهيم وفي إقرار هذه التفرقة بين مجالين حيويين متكاملين ومتواصلين في الحياة.

1-4- أزمة هويّة

يبقى سوء التّعامل مع الأصول ومع الإرث العربي الإسلامي، من المعيقات الأساسيّة التي حالت دون فهم العديد من القضايا المتعلّقة بالفن والمجتمع، رغم ما قدّمه السّلف الصّالح من مبادئ وقواعد جوهريّة في الفن والحياة. وفي ما يتعلّق بالصّناعات التقليديّة، رأى "الحبيب بيدة" تركا للإرث العربي الإسلامي وعدم تعقّل لمقولات فلاسفته ومنظّريه حولها، واقتصارا على ظواهر الأشياء دون الغوص في باطنها، وفي ذلك يقول: "**فما أبعدنا اليوم عن مقولات الفلاسفة العرب المسلمين..**".[5] مقولات حملت فيها الصناعات رسائل ذات فكر عميق ومنطق وجودي يتجاوز جانبها المادي والعملي والنفعي، لينشد الجمالي والكوني والروحاني.

في هذا المنحى، تكون الصناعة فلسفة تعبّر عن فكر المسلم وثقافته وهويّته وكيانه. ثقافة عبّرت عن عراقة حضارة عربيّة إسلامية، قامت على فكرة ارتباط وانصهار الفكر بالفعل انطلاقا من الأحداث المادية والحياتيّة اليوميّة، لتوحّد الأفراد على قيم عالمية ثابتة ذات أهداف روحية ومعنوية متّصلة مباشرة بالفكر والإيمان. تلك لمحة عابرة عن الحقائق الجماليّة عند العرب المسلمين اللّذين انطلقوا من محيطهم وثقافتهم لصنع إبداعهم. إلاّ أنّ ما توصّل إليه المسلم العربي قد تركه المحدّثين، عبر حقائق حادت عن

الآمال المرجوّة، عندما أبوا أن ينطلقوا من ثقافتهم المحليّة العربيّة الإسلاميّة وتعاليمها التي جعلت من الصنائع لغتهم في الحياة. وبالتالي، وقفت العودة إلى ربوع الماضي المزدهر عند التّسمية التراثيّة لا غير، وهو اقتصار على ظاهر المرجع دون الغوص في عراقته الفكريّة والإيديولوجيّة كما ذكرنا، ما جعل الباحث "الحبيب بيدة" يقف وقفة المندهش والمستغرب من أسلوب هؤلاء في التعامل مع الجذور العربيّة الإسلاميّة ومع الصّنائع التي همّشت فيها الجماليّة والصّيغ الإبداعيّة.

كرّس هذا الواقع جمودا ماديّا وفكريّا في سياق حرفي غابت فيها تلك الحماسة التّي من شأنها أن تجعل من الصّناعات المسمّاة تقليديّة عنصرا فاعلا في المجتمع، عنصرا ينبش تاريخه الفنّي القديم ويعود إلى فلسفات منظّريه من أجل مواصلة الإبداع الذّي انطلق مع الأجداد، ودفعه نحو الأمام من أجل التميّز فيه. وهي أزمة أخرى تضاف إلى عديد الأزمات التي تعيشها هذه الصناعات، سببها المركزي التفريط في مراجع الثقافة العربيّة الإسلامية والاستسلام إلى ثقافة الغرب الدّخيلة على واقعنا وأصالتنا وثقافة مجتمعاتنا.

1-5- غزو صناعات الآخر

وجد "الحبيب بيدة" في الصّناعات التقليديّة، وضعا اعتمد بالأساس على المرجعيّات الغربيّة، لتتكرّس معالم الاغتراب والتّقليد والتبعيّة منذ بدايات التّجربة. وهو واقع قد أقرّ مأزقا حرفيا وصنائعيا عربيّا وعجزا وإنكارا للذّاتيّة، أمام تخلّي الذّوات العربيّة عن أصولهم وعن العبقريّة الحرفيّة والصّناعيّة والجماليّة العربيّة الإسلاميّة ، أو بالأحرى سوء فهم الواقع العربي الإسلامي وغياب القراءة السليمة لتاريخ فنونه الحرفيّة وصناعاته المحليّة، كما عرّجنا عليها سابقا. سياق جامد ولا تفاعليّ أضحى فيه التّقليد عن الغرب في الصنع أو في التّصميم والفكرة أو في السّبل التقنيّة ظاهرة وسمة أساسيّة، عبّرت عنها عديد المقولات والتّفسيرات في النص. ولعلّ في هذه المقولة التي أفاد بها "الحبيب بيدة" ما يمكن أن يثبت هذه الخاصيّات: "**ففي حقل الصّناعات الوظيفيّة التي نتعامل معها يوميّا حيّز كبير تحتلّه صناعات صنعها لنا الآخر أو على الأقل صمّمها ووجد لها سبلا تقنيّة وتكنولوجيّة لكي تنجز ماديّا وتتعدّد لتستجيب لحاجات أكثر ما يمكن من المستعملين، وصناعات صمّمها وصنعها أجدادنا وتوارثناها وهي**

أيضا تحتلّ حيّزا أيضا ولكن هذا الحيّز أصبح ضيّقا ولا يزال يضيق أكثر فأكثر أمام غزو صناعات الآخر وهذا استعمار من نوع جديد.."[6]

رأى "الحبيب بيدة" وضعا إشكاليا للصناعات "التقليديّة" تكرّست فيه معالم الهجانة والتذبذب والتململ، بين ربط بالتّراث وقع فيه التخلي عن هذا التّراث في مبادئه ومقوّماته ونجاحاته، ما أكّد حضوره الشكلي لا الفعلي، وبين سلطة الصّناعات الأجنبيّة التي غزت المحلاّت التّجاريّة وسيطرت على الأسواق العربيّة والتّونسيّة بالخصوص. تبعيّة غربيّة كانت فيها الصناعات "التقليديّة" بعيدة كل البعد عن حياة الأفراد، فهي وكما صرّح "الحبيب بيدة": "**هامشيّة ولا تدخل ضمن همومهم الجماليّة ودورتهم الاقتصاديّة أو زخرفيّة تزيينيّة بالمعنى السّطحي يدعو إليها استكمال الحاجي أو أنّها صناعات خدّاعة لا تؤدّي في الواقع أي دور ولا تستجيب لأي غاية**".[7] بل، وقع الزجّ بها في دائرة فصلتها عن المجالات الحياتيّة اليوميّة، هي دائرة المجال السياحيّ الذّي أكّد طبيعة العلاقة التي تربطنا بهذه الصّناعات ورؤيتنا لها التي تجعل منها صناعات "تذكاريّة" لا غير. وهي لمن المسائل التي تدعّمت في أحقابها مقولات الوضع الحرج والمتأزّم الذّي تعيشه الصناعات "التقليديّة"، عندما وقع القطع مع مضامين الماضي مقابل احتضان ثقافة الغرب الغريبة عن هويّة هذه الصناعات "التقليديّة".

2- أزمة الصناعات "التقليدية" في تونس

أعلنت القضايا المطروحة التي أتى عليها "الحبيب بيدة" في نص المقال، عن أزمة الصناعات "التقليديّة"، في سياق نقدي عبّرت عنه جملة الغيابات التي لازمتها. ولعلّ في الاضطرابات الفكريّة والمفارقات التي قام عليها المصطلح وغياب البحوث الجديّة في تناول هذه المسألة الشائكة من قضايا المجتمع، على غرار الإشكال الماهوي والتّصنيفات الاعتباطيّة في التّعامل معها التي حالت دون إثبات كينونتها، وسوء التّعامل والتّفاعل مع جماليّات الإرث العربي الإسلامي وكذلك التبعيّة الغربيّة التّي لزمت الممارسات الفكريّة والماديّة لهذه الصّناعات، إخلالات ومآزق عديدة أقرّت أزمة الصّناعات "التقليديّة" في مجملها.

واقع قد رأى فيه "الحبيب بيدة" وضعا حرجا ومحيّرا لمصير هذه الصناعات، رغم بعض المحاولات المتناثرة هنا وهناك والتي حاولت دعمها من أجل ضمان استمراريّة وجودها، ويذكر في ذلك: "**ورغم اجتهاد البعض في سبيل بقاء هذه الصّناعات على**

الأقلّ والحفاظ على جودتها الأصليّة واجتهاد البعض الآخر لتطوير هذه الصّناعات وجعلها تستجيب للحاجات الأساسيّة المعاصرة لتستعيد سوقها "النّافقة" فلا يزال الأمر يدعو إلى التّساؤل عن مصير هذه الصّناعات".[8] محاولات كانت في مجملها ممارسات ذات صيت خافت ومنعدم تقريبا في ظلّ الوضع الشّائك والمحرج الذّي تعيشه الصناعات "التقليديّة" اليوم. هي مقولة الأزمة التي أصبحت صفة لصيقة بهذه الصّناعات، أمام حال التّهميش ووضعيّة إهمال عديد الجوانب المتعلّقة بها، جعلت "الحبيب بيدة" ومن خلال أسلوبه في دراسة هذه المسألة ومنهجه التهكّمي والمعاجم والألفاظ التي وظّفها للتّعبير عن موقفه واستفساراته وتساؤلاته المتواصلة في متن المقال، يرى بكون "**الصّناعات التقليديّة في خطر**".[9]

"خطر" وكما عبّر عنه "الحبيب بيدة"، جعله يقدّم في خضمّه جملة من الحلول التي من شأنها أن تنهض بهذه الصناعات "التقليديّة" من الهوّة التي انحدرت فيها، يأخذ فيها الفنان و"النّاقد"، إذا ما وجد، والباحث التشكيلي بزمام الأمور:

- فكرا: الدّراسة النّقديّة الجادّة والبنّاءة التي تجعل هذه الصّناعات على محكّ الدّراسة والتحليل المنطقي والعلمي، استنادا إلى المدوّنة الفلسفيّة والجماليّة العربيّة الإسلاميّة التي وضعت الأصول وانفتاحا على الحاضر بكلّ مميّزاته الاجتماعيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة وغيرها، حتّى تقع هذه المواءمة الخلاّقة بين التّراثي والمعاصر.

- ممارسة: وهي مسؤوليّة الفنان التّشكيلي الذّي يجب أن يوفّق بين الجانب الجمالي الفني والجانب الوظيفي لهذه الصّناعات، وفي ذلك استيعاب لجماليّة التّراث وبلورة لأحكامها في ظلّ الحاضر.

تأكّدت الخاصيّة التي رأت في التمسّك بالهويّة العربيّة، ركيزة أساسيّة في المشاريع الإصلاحيّة في ظلّ واقع التبعيّة الغربيّة. ويرى "الحبيب بيدة" في المنتجات الفلسفيّة العربيّة القديمة، وسيطا قادرا على تجاوز المحنة التي تعيشها هذه الصّناعات ودعامة أساسيّة في تأسيس ثقافة صناعية وحرفيّة محليّة حديثة. وما من شكّ أن يتطلّب ذلك، وعيا ذاتّيا ومسؤوليّة تفترض في حدّ ذاتها تعمّقا في مقوّمات هذا التّاريخ وفهما للجذور الماضية من أجل إدراك الحاضر وبناء واقع قادر على مجابهة المتغيّرات والتطوّرات العامّة للمجتمع، بوسائط وآليّات عربيّة تنبع من الإرث السّابق. وهي وقائع قد غابت عن

الممارسة الحرفيّة والصناعات "التقليديّة" المحليّة، التّي اتّخذت من المنتوجات الغربيّة مرجعا ثابتا لها كما تبيّن في سياق البحث.

3- مشكليّات البحث النّظري في تونس

لمست مادّة المقال، كما لاحظنا جيّدا، قضايا هامة متعلّقة بموضوع الصّناعات "التقليديّة"، عبّرت عن طبيعتها ومميّزاتها والوضعيّة التي تقف عندها. وقد لمسنا من خلال هذا البحث النظريّ الذي كان مرجعنا الأوّلي في دراسة هذه المسألة وفي الحكم عليها، مستويات عامّة أتت على حقائق هامّة لا يمكن أن نغضّ الطّرف عنها، خاصة أمام الحجج والبراهين المعرفيّة المقّدمة والتي عكست صورة غير مشكوك فيها عن هذه الصناعات وأقرّت واقع الأزمة المتأتّية عن جملة العراقيل المحيطة بها في عديد المستويات.

وبالتالي، تمكّن "الحبيب بيدة" من الإلمام بواقع الصّناعات "التقليديّة" ومن تصوير مشهده العامّ، وهي من النقاط التي تحسب له، خاصّة وأنّه قد قدّم مقترحات للخروج من المآزق والأزمات المشطّة الملمّة بهذه الصناعات. وعلى الرغم من ذلك وأمام هذه النّجاحات التقريريّة، فقد غابت البدائل والحلول الإجرائيّة التي تقدّم فيها بحوث واقعيّة تحليليّة من شأنها أن تكون بداية فعليّة للعمل الإصلاحي، ليكتفي هذا البحث بنقد الأوضاع المميّزة لهذه المشكليّة، لا غير. فلم ينخرط "الحبيب بيدة" في المشروع الإصلاحي الذّي يأخذ فيه بزمام البحث العلمي ويشرع فيه في تقديم دراسات جادّة حول هذه الصّناعات، التي ينطلق فيها رسميّا من الحلول التي طرحها، وينبش ماضي الحرف في المنظومة العربيّة الإسلاميّة بتفاصيلها وجزئيّاتها ويقف عند نجاحاتها ويطرح نظريات وأفكار حديثة تمكّن من إثراء مدوّنتنا النّظريّة العربيّة الخالية من هكذا دراسات. فالدّراسة التي قدّمها "الحبيب بيدة" على هذا النّحو، هي دراسة تقريريّة إنشائيّة قدّمت الموجود ولم تطرح المنشود الذي نفتقره اليوم في مدوّنات بلادنا، ونقصد بذلك الدّراسات العلميّة الحيّة التي تضع المفاهيم والمصطلحات والقواعد والأسس والمناهج والآليّات التي من شأنها الرقي بالصناعات "التقليديّة" من التهميش الذي تعيشه إلى يومنا هذا.

نحن هنا، لا ننفي ما قدّمه "الحبيب بيدة" نظريّا، إلاّ أنّنا نؤكّد كذلك على غياب البدائل التجريبيّة الإجرائيّة ذات البحوث التحليليّة والتّطبيقيّة التي يمكن أن تكون

مرجعا تنبني على أسسه الممارسة الحرفيّة في مناسبات موالية لهذا البحث. ربّما نفسّر ذلك بكون هذه الدّراسات التي ننشدها، تمثّل عملا شاقا وتتطلّب مجهودا وتفرّغا وصبرا وبحثا عسيرا ومسؤوليّة كبرى، فيتجاوزها الباحث عندما يختار الحلّ التقريري النقدي الذّي يكتفي فيه بنقل الواقع وتصوير ملامحه وتقديم بعض الحلول الطّوباويّة، في إطار ما كان وما يجب أن يكون. ولا يمكن أن يكون هذا المقال الذّي نقف عنده، سوى عيّنة معرفيّة تلخّص إجمالا المشهد العام لمناهج البحوث العلميّة في وطننا العربي عامّة والمحلّي على وجه الخصوص، التي يكون فيها نقد القضايا المتعلّقة بالفنون والحرف منهجا أساسيّا في الدّراسة على حساب الدّراسات الإجرائيّة. وإن وجدت هذه البحوث المنشودة، حتّى لا نقرّ انعدامها الكلي في وسطنا المعرفي، فتبقى حبرا على ورق لا تستغلّ في تغيير الأوضاع، ولعلّ في الأزمات التي تحيط بعديد المجالات الفنيّة والحرفيّة وغيرها ما يؤكّد ذلك.

وإذا ما اعتبر "الحبيب بيدة" الصناعات "التّقليديّة" في خطر، وأبدى لومه من الفلاسفة والباحثين على عزوفهم عن مهامهم في البحث كما أشرنا إلى ذلك في مناسبات سابقة، فإنّنا لنرى بكون هذا اللّوم والتّقريع يشمل "الحبيب بيدة" كذلك، وهو الباحث والأكاديمي المختص في علوم الفن والجماليات ورائد من روّاد الفكر الفني التشكيلي التونسي والعربي. وتلك هي المفارقة التي يمكن أن نسجّلها في هذا المقال والتي ينطبق فيه اللوم على اللاّئم. وما يمكن أن نخرج به إجمالا من وراء هذا النص، وعلى مستويات النّجاح التي ميّزت متنه، القول بأنّ بحوثنا ودراساتنا النّظريّة اليوم في خطر، وهي مسؤوليّة يمكن أن يتحمّلها روّاد الفن بدرجة أولى، ومن دون شكّ.

هوامش البحث:

[1] الحبيب بيدة، مقال بعنوان: "**إشكالية التّقليد في الصناعات التقليدية**"، ملتقى "الإبداع الوظيفي بتونس في القرن العشرين" المنظّم ببيت الحكمة بقرطاج في أفريل 2006، منشورات وحدة البحث حول الممارسات الفنيّة الحديثة بتونس، ص. 14.

[2] الحبيب بيدة، **المصدر نفسه**، ص. 15.

[3] الحبيب بيدة، **مصدر سابق**، ص. 13.

[4] الحبيب بيدة، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

[5] الحبيب بيدة، **مصدر مذكور**، ص. 17.

[6] الحبيب بيدة، **مصدر مذكور**، ص. 13.

[7] الحبيب بيدة، **المصدر نفسه**، ص. 20.

[8] الحبيب بيدة، **المصدر السابق**، ص. 20.

[9] الحبيب بيدة، **المصدر نفسه**، ص. 19.